أنا خيرٌ منه

معتصم أبوالغيث

كان واحداً من الملائكة المُكرمين عند ربهم، ثم تغير حاله فأصبح موعوداً بالخلود في نار جهنم، وفي جُملةٍ واحدة تلخصت جريمته التي أودت بهلاكه، لقد قال إبليس: "أنا خيرٌ منه". فأنقلب حاله وساء مصيره. عن آدم كان يتحدث إبليس حين قال تلك الجملة، وعن عدو أباهم وعدوهم توارثها من أبناء آدم كثيرون، فأصبحوا يقولون لبعضهم ما قاله عدوهم في أباهم، متحججاً بأصل خلقه تكبر إبليس "خلقتني من نارٍ وخلقته من طين"، وفي الأعراق والأنساب وجد بعض أبناء آدم ضآلتهم الشيطانية للاستعلاء وازدراء الآخرين.

إن الدعوات العنصرية والعرقية، ليست سوى دعواتٍ شيطانية للخراب والدمار ولكن بقناع مستتر، فبالعودة إلى ذاكرة التاريخ المحملة بالأحداث والوقائع، نجد أن أشد الصراعات عنفاً في حياة المجتمعات وأكثرها ضراوة ودموية، هي ما ارتبط منها بدعوات الاستعلاء العرقي والتمييز العنصري، فلا يبقى بعد ذلك شيء في تلك المجتمعات سوى الخراب والدمار. وكثيراً ما تختبئ خلف أمثال تلك الدعوات الشيطانية، الكثير من المصالح الخارجية في تقسيم الداخل، فمعول التحريض العرقي والعنصري هو أكثر المعاول قدرة على تفتيت المجتمعات وتكسيرها، لتصبح تلك المجتمعات بعد ذلك لقمةً سائغةً في أيدي تلك الدول الطامعة.

تحكي إحدى القصص الرمزية قصة عن ثلاثة إخوةٍ من الثيران أسود وأحمر وأبيض، وكان لا يقوى الأسد على مجابهة ثلاثتهم ولا حتى اثنان منهم، هو لا يقوى إلا على قتل كل واحدٍ منهم لوحده، ذهب الأسد إلى الثور الأسود وأخاه الأحمر، وقال لهما: إن لون الثور الأبيض فاقعٌ ويفضح مكانكم في الغابة، وإذا أردتم فاتركوني أقتله لتتخلصوا منه، وتصبحوا في أمانٍ أكبر يا أصدقائي، بالموافقة أجاب الثوران على الأسد، وفي ذلك اليوم أصبح الثورُ الأبيض فريسةً للأسد وأخويه يتفرجان عليه. بعد أشهرٍ عاد الأسد للحديث ولكنه هذه المرة انفرد بالثور الأسود فقال له: إن لونك الأسود يجعلك مخفياً تماماً فلا يراك في الغابة أحد، ولكن لون أخاك الأحمر فاضحٌ بعض الشيء، فاتركني أقتله لتصبح في أمانٍ أكبر صديقي العزيز، فرحاً بصداقة الأسد ومصدقاً له، وافق الثور الأسود على ما أقترحه الأسد، وهو يقول: ومن سيجرؤ على الاقتراب مني وأنا صديق الأسد، وظل بعد ذلك متفرجاً على أخاه الأحمر والأسد يأكله. ولكن لم تمضي بعضٌ من الأيام إلا وقد عاد الأسد من جديد، وقبل أن يرحب الثور الأسود بصديقه الأسد، قفز الأسد منقضاً على الثور ومفترساً له، حينها فقط علم الثور بما أقترفه بنفسه فقال: "أُكِلت يوم أُكِل الثور الأبيض".

شبيهة تماماً بأحداث هذه القصة الرمزية تسير قصص العرقية والعنصرية كذلك، فيأتي الطرف الخارجي متحججاً بالصداقة وزارعاً الفتنة بين الإخوة، يأتي وهو لا يرى غير مصالحه فقط، فيصدقه الأخ المخدوع ويترك له أخاه فريسةً سائغةً أمام ناظريه، وربما يذهب الأخ بنفسه للقضاء على أخيه، وكالفأر المسجون لا يدرك الأخ وقوعه في المصيدة إلا بعد فوات الأوان؛ ولهذا جاء الإسلام مشدداً في تحذيره من أمثال تلك الدعوات، فسماها "دعوى الجاهلية". وقال فيها: "دعوها فإنها منتنة". كان أبا ذر الغفاري صحابياً من السابقين في الإسلام، وحدث ذات مرة أن عيّر رجلاً بأمه الجارية، فغضب المصطفى صلوات الله عليه وقال له: "إنك امرؤ فيك جاهلية". ولو كان للعِرق معنى بعد الإسلام، لكان حظ عم النبي "أبا لهب" وافراً في ذلك، ولكن أبا لهب كان

الوحيد الذي نزل فيه القرآن يتوعده بنار جهنم وهو ما يزال حياً، وفي المقابل يأتي الرسول إلى من كان قبل إسلامه عبداً فيقول له: "يا بلال إني لأسمع طقطقة حذائك في الجنة".

نزل القرآن وفي مُحكم آياته قال: "يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم". لقد بين لنا الله عزوجل أنه لم يُخلق اختلاف الأعراق والأنساب إلا ليكون ذلك أسهل للتعارف بين الناس، كقولنا فلان بن فلان من كذا أو كذا، وأنه لا فضيلة أو كرامة لعرقٍ أو نسبٍ على آخر، فالكرامة معقودة بتقوى الإنسان، وتلك التقوى محلها في القلب كما بين المصطفى صلوات الله عليه، وما في القلب لا يعرفه إلا الله تعالى، فلا يأتي أحدهم قائلاً: "فلانٌ أتقى من فلان" أو "أنا أكثر تقوى من فلان". ففضيلة التقوى لا يعلمها إلا الله، وكل الناس في الدنيا سواسية.

كان خلفاء بني العباس حكاماً لدولة ممتدة واسعة، ورغم أنهم كانوا ينتسبون لنسبٍ واحد، فقد وجدت الدعوات العرقية نصيباً لها فيهم وذلك من تجاه الأمهات، فأصبحوا وكل واحدٍ منهم ينتصر لأخواله، فذاك ينتصر لأخواله من العرب وذاك لأخواله من الفرس وذاك لأخواله من التُرك، ولم يمكثوا طويلاً بعد تلك الدعوات العنصرية، إلا وقد سقطت الدولة العباسية القوية في براثن الضعف والانحلال. وفي أقاصي الغرب في الأندلس، كان سقوطها بأيدي الأوروبيين نتيجةً طبيعيةً لسقوط العرب في براثن النعرات العرقية والعنصرية، فقد أصبح العربي يستنجد بالأوروبي لقتال أخيه، ويظل العربي ساكناً فرحاً إذا ذهب الأوروبي لقتال عربي آخر.

ختام الكلام: إننا حين نحارب الدعوات العنصرية والعرقية، لا نحاربها لفضيلةٍ منّا وترفعنا عنها فقط، بل نحاربها لأننا إن لم نحاربها قتلتنا وأردتنا صرعى. كما ان عنصرية الآخر لا تعني أن أكون عنصرياً مثله، بل تعني أن أكون الأفضل وألا أدعو لعنصريةٍ أبداً، وتقدس سبحانه القائل على لسان هابيل: "لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين".